الذي كبر وتعلم ، وهـا هو يتزوج بعيـدا عنهـا ، وتتخيـل حفل الزفاف والكنيسة وطلعة العروس ، يا ليت كل ذلك كان امامها ! « ما أعظم شوق يافا لان ترى عرسا لاحد أبنائها » ! ولكن الكابوس ما زال ثقيلا وقد مات طعم الفرح في أفواه الناس . ثم مـن يزغرد للعريس ؟ أم العروس ؟ ولم لا وقد خلا لها الجو ! وتختلط الافكار في راس سلمى، وتشعل الشموع في أيدي ابناء بنتها الذاهلين ، وتمسح دموعها وتطلق زغـاريدها المخنوقـة .

الصورة الفلسطينية الثانية طالما وصفتها اقلام الصحفيين العرب وطالما صورتها كاميرات مصوري وكالات الانباء العربية والاجنبية ، اذ لم يعرف العالم صورة في طرافتها ولا في غرابتها ولا في شذوذها ، صورة بوابة « مندلبوم » عشية عيد الميلاد من كل عام بعـد عام ١٩٤٨ ، حيث يحتشـد ابناء فلسطين الذين يعيشون في الداخل ، ليلتقوا خـارج البوابة المشئومة بالوافدين للقائهم من الاهل والاقارب والابناء والازواج ، وربما الاحفاد ايضا . وفي ذلك العام بالذات حملت احدى السيارات القادمة عن طريق درعا والرمثا عجوزا مشوقة للقاء ابنتها التي ستحضر من « الناصرة » وقد حملت لها ولاولادها بعض المأكولات والملابس . وعبر الطريق تسلي نفسها والسائق بالثرثرة عن « ماري » واولاد ماري ، وتروي بعض احداث الهجرة ومآسي الفراق : « سبع سنوات مرت على فرقتنا، تركتها عروسا فصار لديها كريم والياس وعبد النور ، سبع سنوات ، عمر يا بني عمر ، وما استطاعت ان تترك الناصرة الى القدس لترانا فهي اما حامل او نفساء » . ورغم تعب الطريق ووعثاء السفر الا ان العجوز متماسكة قوية ، تصبر وتتحمل وسـتأتي ماشية على قدميها لو اقتضى الامر ، حتى تحظى برؤية ماري : « سأقبل ماري فلا اشبع واشمها فلا اكتفي واسألها حتى يجف ريقي . . » ستسألها عن يافا ، فربما تكون زارتها، عن البيت والجيران ، عن البيارة والكنيسة . . وتحمل نهاية القصة مفاجأة قاسية ، لقد مرض زوج ماري فلم تتمكن من الحضور . . والى العام القادم ! أية عبارة درامية تختم بها سميرة قصتها حين تفيق العجوز من غشيتها وتعطي السل لناقل الخبز وتقول له : « خذه وقبل رأسها عني ، وقل لها على لساني . بعد السلام انني اذا عشت عاما آخـر فسآتي اليها زاحفة على قدمي . . واذا عاجلتني رحمة الله ، فلن أموت الا بحسرتين حسرة بلدي ، وحسرة ماري ، وقبلة على خدها ! » . وقد عبرت الكاتبة نفسهـا عن اهتمامها بالمطالع والخواتيم حين قالت : « المطالع والخواتيم عندي اوليها عناية خاصة، فقد تقتل العبارة الاخيرة ان لم تكن زخمة وموفقة كل الموحيات والتأثيرات التي أحب ان أتركها مع القارىء »(١) .

وتجيء مجموعة « الساعة والانسان » بقصصها المتقنة الحبك ، باحداثهـا الدرامية ، ومواقفها الساخرة ، ونهاياتها المأساوية اليائسة ، ويحظى الفلسطينيون من كل ذلـك بنصيب ، فالقصة الاولى من قصص المجموعة قمة في السخرية والمرارة والالم القومـي الممض . ولذلك لم يكن غريبا أن صدرتها مجلة الاداب حين نشرت فيها عام ١٩٦١ بالابيات التالية للشاعر العراقي المرحوم بدر شاكر السياب من قصيدته « قافلة الضياع » :

« قابيل أين اخوك ؟ »
ــ « يرقد في خيام اللاجئين
السل يوهن ساعديه ، وجئته أنا بالدواء
والجوع لعنة آدم الاول وارث الهالكين
ساواه والحيوان ثم رماه أسفل سافلين

---

١ ــ ملحق صحيفة « الانوار » اغسطس ١٩٦٧ ، لقاء صحفي قبيل وفاتها .